بين الفرات وقلعة نجم

قصّة

ابتسام شاكوش *

سرب الأسماك الصغيرة السابحة في ماء الفرات توقف، توقف مشدوهاً يرقب انسياب الحب على شاطئ ليس بذي زرع، يرنو بشغف إلى الرجل الغافل عما حوله يفتح صدره على اتساعه لينداح منه حب أكثر غزارة ونقاء من ماء الفرات، قلعة نجم الرابضة على خلفية المشهد حبست أنفاسها، أطبقت أضلاع جدرانها على حقبات من التاريخ وراحت تغزل مع الريح لحن الهوى.

* قاصة من سورية

- العمل الفني: الفنان مطيع علي

العيون المستديرة أضاعت أجفانها، الأجساد المغزلية طوت حراشفها باتجاه التيار لتتوقف برهة عن حركتها الأزلية، منسحبة من الكون تاركة الساحة كلها للدهشة، تحتلها بلا مقاومة.

أسندت المرأة رأسها على كتلة العضلات الصلبة لكتفه بغنج، انسدل شعرها الطويل الملفلف وفق آخر ما اجتاح البلد من صرعات الموضة، على صدره دغدغ الإهاب المرن الضام لمنظومة العضلات فطار به إلى خدر لذيذ ساحر.

ها هنا يحلو لروحه الانعتاق من صغائر الحياة، والتحليق بعيداً في سديم الخشوع، الفرات يجري تحت قدميه، الطبيعة البكر تنحني بين يديه ببراءة طفلة تعرض دفتر وظائفها على ضيف زائر يحتل في قلب الأسرة مكاناً جميلاً، القلعة بجلال ما تنطوي عليه من تاريخ تقف خلفه، ترقب بإعجاب ما فعل وما يفعل، وما سوف يفعل.

برقة الشاعر وخدر العاشق، برهافة وحذر المقاتل، ترك بصره ينزلق بتؤدة على صفحة الماء الصقيلة وقد طبع عليها الغروب قبلة ملتهبة، استخفه الوجد فتنهد بعمق ذائباً في روعة المشهد، أطبق شفتيه على ثغر الناي، وراح يسكب روحه ألحاناً غمرت القلعة وتجاوزت الشاطئ الآخر للنهر، توقفت السنونوات عن عبثها، آبت إلى أعشاشها لتستمد أحلام النوم من سحر أنفاس الناي.

الأزرق يزحف من الأفق الشرقي بصمت موشحاً المشهد بسحر البنفسج، متمهلاً يخشى على اللحن العذب أن يجرحه الصدى، تململت المرأة بغيظ، أية متعة يراها في خط ماء يسري بين أكوام من التراب؟ التفت إليها، أراح الناي إلى جانبه وجذب الخصر الدقيق إليه برفق، تزاحمت الكلمات في خياله، تدافعت فيما بينها لتشكل غصة لذيذة في حلقه، أرسل أصابعه بين غدائرها مداعباً معابثاً، تداخلت الخصلات وانفلتت نوابضها، انتفضت نافرة، تباعدت عنه وراحت تحاول إصلاح ما خرب الحب من تسريحتها، التفت إليها بعينين تشرق فيهما سعادة من نوع جديد، لاح له الحنق المستولي على ملامحها، ضحك بصخب:

– تدللي ما شاء صباك المترف، أيا

مهرتي الدهماء، يا لون بندقيتي، انفري مني مهاة تركض في فلوات أيامي، وعودي، فراشة ملونة تنتقل بين أصابعي.. تعالي إلي. تعالي.

ازدادت حنقاً، لملمت أطراف ثوبها وراحت تنفض عنه الغبار، ما أبرعه بصوغ الكلام، وما أعنده وأشد صمته حين تعرض عليه ما تتمنى، عينا أمها المرعبتان اقتحمتا خيالها، تحملان من الغضب ما ينوء به خنوعها المطلق واستلابها لهذه الأم، التي قررت رسم صورة لأحلام بناتها تكمل بها ما فات من أحلامها، ارتعشت غيظاً لضحكته:



- قم بنا نغادر هذا المكان أنا خائفة.
- تخافين وأنت معي؟
- ....
- مم تخافين يا صغيرتي؟ تعالي إلي، ابتسم بسرور، مسراً في نفسه: مهرة جموح أنت، وأنا الخليق لترويض من يجمح، انفري يا مهرتي، لن يكون قيادك أصعب من قياد رشاش حملته وجبت به أدغالاً ما أظن قدماً وطئتها قبل أقدامي، اجمحي، قطعي كل

حبالك وأعنتك، أصـــابعي أقوى أنواع الأعنة وأمتنها، ســـأتمهل في ترويضك حتى تذعني من تلقائك وتأتيني طائعة راضية.

طال صـــمته وطال شرود عينيه، امتدت على عرض وجهه بســـمة تنضـــح ثقة وقوة، ستتحررين من خوفك وتكونين رفيقتي في كل مشاهدي، ســـتكونين بيتاً أسند إليه ظهري، وأمانـــاً تؤوب إليه روحـــي، نظرت إليه، خيل إليهـــا أنه يتجاهـــل خوفها بـــل يجهله، لعله يظنها خائفة من خشاش الأرض؟ مرة أخرى أطلقـــت عينا أمهـــا شرراً، تجـــاوزت حدود العتاب الرقيق، والغضـــب المكتـــوم، عقدت حاجبيها، تقاطر السم زعافا في أديم وجهها، خيل للفتاة أنها تصرخ:

- غبية أنت، تستســـلمين له وهو يضحك منك، يهـــزأ بأحلامك ويهـــين كبرياءنا يترك المرابـــع والمنتزهـــات الراقية، ينـــأى بك عن زحـــام الأســـواق، يـــترك المطاعـــم الفخمة اللائقة بأمثالك مـــن العرائس ويأتي بك إلى هـــذه الفلاة، بعد لحظات ســـوف تســـمعين عواء الذئاب والثعالب أيتها الحمقاء، ســـوف تهاجمك وتفترسك، أهذا شهر العسل الموعود أيتها الغبية؟

تباعـــدت عنـــه وراحت تـــذرف الدموع بصمت.

الســـمكات تحت سطح الماء ظلال لامعة، نضت عنها ثوب الحراشف الفضية، تسربلت بأثواب النســـوة صـــديقات الأم واســـتعارت عيونها، راحت تنظر إلى الشعر المتناثر والثوب المغبر بازدراء، مشيرة إلى أماكن فخمة تتناثر في المدينـــة الكبيرة، تبيع المثلجات والحلويات للمترفين من الناس، تحول بكاؤها الصـــامت نحيبا مراً، دنا منها بســـط كفه على ظهرها، كان خوفها أكبر من كل محاولاته لتهدئتها.

نباح كلب شارد ترجع في البعيد، انتفضت، أطلقـــت صرخة رعب وهبـــت واقفة، راحت تبكي بقهر واضح آثار حيرته، نهض متثاقلاً، أمسك يدها، مشى مبتعداً، أحس بها تتسرب مـــن تحت إبطه، كمـــا يتسرب ضـــياء النهار من هذه الأمســـية الغريبة، ترك وراءه حطام حلم كان كبـــيراً، يمتد خلفاً حتى يلامس من التاريخ ما غاب عن أقلام المؤرخين، يسترخي على الحاضر، ليحتضن قصة عشقه للبندقية والناي وكلية العلوم، يركض باتجاه المستقبل

محطمـــا تحت قدميه كل تماثيل الشــطرنج، يركض حتى يصــل إلى حيــث يربض المجد، يمسك بغرته، يعتلي صــهوته كما الحصان، لكنه اليوم، ينســاق مرغمــاً في موكب رعب المرأة التي يرافق، حزيناً كحزنها وإن اختلف الموضوع، جاهلاً بالغضب المنتظرها في سهرة النســوان، تاركاً وراءه صــوراً رائعة رســمها خياله لتتناثر، وتتشــظى متحطمة هنا على هذا الشاطئ القفر لنهر الفرات المتكئ على السور المهدم لقلعة نجم.

